تجليّات الخطاب اللّسانيّ العربيّ المعاصر عند مصطفى غلفان.

Manifestations of Modern Linguistic Discourse of Mustapha Galfan.

أ. تهامي بلعقون‡

إشراف: د. مراد قفي§

تاريخ الاستلام: 2020.11.08 تاريخ القبــول: 2021.04.20

ملخّص: يستهدف هذا المقالُ الخطابَ اللّسانيّ النّقديّ عند (مصطفى غلفان) وذلك بمتابعة العمليّة النّقديّة التي تعرّض من خلالها إلى ملابسات تلقّي اللسانيات في الثّقافة اللّغويّة العربيّة، فالدّراسة بذلك توخّت الوقوف بشيء من التّفصيل على طريقة مصطفى غلفان، في تقويمه الخطابَ اللّسانيّ العربيّ سعياً إلى معرفة أسباب اختيار النّاقد لتصنيفه ومختلف آرائه، فهي –بعد ذلك–محاولة لبناء منهج نقدّي تقويميّ للّسانيّات العربيّة، هدفه نقد الجهود اللّسانية العربيّة ووضعها على المسار الصّحيح، للإفادة منها في معالجة مختلف المشاكل اللّغويّة العالقة.

الكلمات المفتاحية: الخطاب اللّساني، التقويم، مصطفى غلفان، التصنيف.

‡جامعة محمد بوضياف المسيلة، الجزائر، البريد الإلكتروني:
belaggoune.touhami2020@gmail.com (المؤلّف المرسل).

Abstract: This article reviews the critical linguistic discourse of (Mustapha Galfan) by following the critical process through which he dealt with the circumstances of receiving this knowledge in the Arab linguistic culture. This study has taken into account with some detail, the method of Mustapha Galfan in his evaluation of the Arab linguistic discourse and has tried to know the critic's causes of choosing his classification and his different views. The study is an attempt to build a critical evaluative approach of Arab linguistics that criticizes Arab linguistic efforts and puts them on the right path in order to handle different linguistic problems.

Key words: linguistic discourse, evaluation, Mustapha Galfan, classification.

1. مقدّمة: لقيت اللّسانيات ترحيبا واسعا من قبل كثير من الدّارسين العرب وبخاصّة الذين وفدوا من المدارس الغربيّة، فانبهروا بهذا العلم وحاولوا نقله إلى الثقافة العربية "وبالرّغم من هذا الاهتمام الواسع باللّسانيات، فقد كانت الثقافة العربيّة بحاجة إلى وقت غير قصير لإدراك أهمية هذه المعرفة الجديدة وجدواها... إنّ الاهتمام باللّسانيات ومناهجها ونظريّاتها المختلفة لم يبدأ في الثقافة العربيّة فعليّا إلاّ في بداية السبعينيات من القرن العشرين؛ فقبل هذا التاريخ سجّل أكثر من باحث لسانيّ عربيّ البداية المتعثّرة للّسانيات داخل الأوساط الجامعيّة وخارجها"[1] وهذا ما يؤكد حقيقة مفادها أنّ الكثير من المتخصّصين وغيرهم تصدّوا للّسانيات، واستنكروا دعوات الحداثة والتجديد وآثروا الإبقاء على المناهج اللّغوية التراثية، كما دعوْا إلى ضرورة المحافظة عليها والتمسّك بها باعتبارها مقوّما من مقوّمات الأمّة العربيّة.

لقد صادف تلقّي اللّسانيات عند العرب صعوباتٍ كبيرةً في بادئ الأمر، إذْ كان اللّسانيّون العرب "يتوجّسون ممّا قد يجابهون به من ردود أفعال مناهضة لنشاطهم سواء

من المشتغلين باللّغة أم من الجهات الجامعيّة والمؤسّسات العلميّة التي ترعى النّشاط اللّغوي، فقد استشعروا صعوبة تقديم المناهج اللّسانية الحديثة للقارئ العربيّ، ولم تكن الصعوبة في عمليّة عرض هذه المناهج بقدر ما ارتبطت بإقناع الآخر بجدوى هذه العملية"[2]، كما قُوبلت اللّسانيات بالرّفض والتّشكيك في منهجها وأصولها، فقد لاحظ (إبراهيم مصطفى) أنّ "بعض المتخصّصين في علم العربيّة، والمهتمين بأمر هذه اللّغة في بعض المجامع اللّغوية، ما زالوا ينظرون إلى هذا العلم نظرة الشكّ والارتياب؛ لأنّه علم أجنبيّ لم ينبت في أرضنا، أو هو لون من التّغريب، إذا ما طبق على لغتنا يحاول هدمها والقضاء عليها"[3]، وما يؤكد هذا الزّعم قولُ (أحمد العلوي) حين سُئل عن رأيه في اللسانيّات المعاصرة حيث قال: "لا يستطيع أحد أن ينكر أنّ اللّسانيات المعاصرة تحمل في خلالها وثناياها خصائص الممارسة اللّغويّة الأوربيّة ومصطلحاتها، ولذلك فإنّ إمكان نشرها في الأوساط الأوربيّة أسهل من إمكانه في الأوساط العربيّة، يُضاف إلى ذلك أنّ اللّغويين العرب ليسوا مشاركين في الحوار اللّغويّ الأوربيّ أمريكيّ وإنّما هم متبضّعون. ولذلك فإنّ من العسير نقل اللّعبة اللغوية"[4] وقد أشار (محمود السّعران) أيضا إلى هذا الواقع بقوله: "إنّ هذه الدراسة في البلاد العربيّة لا تزال غريبة على جمهور المتخصّصين في المسائل اللّغويّة المنقطعين لها المنصرفين إليها... فأغلبهم يرفض النظر في هذا العلم الجديد، أو لا يحاول تفهمه"[5]، ويكمن السّبب في نظرة كثير من الدّارسين إلى اللّسانيات الحديثة نظرة تخوّف ونقص؛ هو الظنّ السّائد بأنّها تأخذ شرعيّتها من دراسة اللّهجات، وأنّها تحتكم إلى نبذ معيار تفاضل اللّغات عن اللّهجات ما جعل المهتمّين بقضايا اللّغة العربيّة يتصوّرون أنّ هذا العلم يرتبط بنوايا المستشرقين التهديميّة للّغة العربيّة، وأنّه علم لا يصلح إلاّ للّغة التي أنتجته. إنّ ما يمكن استنتاجه من هذا الطرح أنّ صعوبة استقبال وتلقّي هذا العلم أفرزتهُ أسبابٌ عديدة متنوّعة، فرضها الواقع الاجتماعيّ والسياسيّ للشعوب العربيّة، وهذا ما أدّى إلى تمسّك الفرد العربيّ بأصالته اللغويّة ورفضه لأيّ غريب يهدّد قوميّته ولغته، غير أنّ هذا الاعتقاد ما لبث أنْ تغيّر وبخاصة في مرحلة السبعينيات، وعلى الرغم من عدم قابلية معظم المثقّفين العرب للّسانيات الغربيّة، إلاّ أنّها انتشرت بقوة بعد الانفتاح الفكريّ للشعوب العربية على

الحضارات الأخرى، فكثُر بعد ذلك الإنتاج الفكريّ المتعلق بهذا العلم، ولقد أفرز هذا الزخم العلميّ إشكالاتٍ جديدة واجهها الخطاب اللسانيّ العربيّ، من بينها غلبة الكمّ على النوع، إضافة إلى الانبهار بالوافد الجديد وذمّ كل الجهود التراثيّة الأخرى، ما أدى إلى وجود نمط مستحدث في الخطاب اللّسانيّ العربيّ يكون الهدف منه تقويم الكتابات اللّسانيّة العربيّة، وإرجاعها إلى منهجيتها وأهدافها الصحيحة ومن هذا المنطلق نتساءل: إذا كان هناك نقد للخطاب اللّسانيّ، فما مفهومه؟ وما أبرز اتّجاهاته؟ وكيف طبّق مصطفى غلفان نظريّته النقديّة؟ وما النتائج المتوصل إليها؟

2. **الخطاب اللّسانيّ التقويميّ واتّجاهاته:**

1.2-تعريف الخطاب اللّسانيّ التقويميّ(النقدي): يُعرّف بأنّه خطاب مؤسّس على خطاب آخر وغايته تتبع منجزات الخطاب اللّسانيّ المغاربيّ والعربيّ على اختلاف أنماطه، بالنّظر إلى الأسس النّظريّة التي يَصدُر عنها والأدوات المنهجيّة والإجرائية التي يتوسّل بها والنّتائج التي حقّقها، وتكمن أهميّة هذا النّمط في الدّور الذي يلعبه في إطار الثقافة اللّسانيّة العربيّة والمتمثّل أساسا في تقويم الحركة اللّسانيّة العربية، وتحديد موقعها من صميم النّشاط اللّسانيّ (مدى قربها أو بعدها عنه) ممّا يسهم في إثرائها من ناحية وتوجيهها من ناحية أخرى[6]. إنّه منحىً خاصّ في الكتابة اللّسانيّة، يقوم على التّحليل النّقديّ الذي يسعى إلى مساءلة الأسس النّظريّة والمنهجيّة للّسانيات العربيّة ومن هذا المنطلق يرى (مصطفى غلفان) أنّ المكتبة العربيّة تخلو "من الدّراسة المفصّلة الشّاملة التي تعرض بالتّحليل النقديّ لتجربة اللّسانيّات في الثقافة اللّغويّة العربيّة الحديثة، فلم تُعقد بعد أي صلات بين الخطاب اللّسانيّ العربيّ وبين الخطاب اللّسانيّ العامّ، وهي الصّلات التي بإمكانها أن تبيّن لنا المصادر الأساس التي نهلت منها كتاباتنا اللّسانيّة الحديثة وتحدّد الأسس النّظريّة والمنهجيّة المعتمدة، وتكشف عمّا استفادته دراسة اللّغة من هذه المعرفة الجديدة[7]". ومن هذا المنطلق فقد بات هذا التّوجه يشكّل اتّجاها قائم الذّات في المغرب العربيّ بصفة خاصّة وفي دول عربيّة أخرى.

2.2 اتّجاهات الخطاب اللّسانيّ التقويميّ(النقدي): إنّ الخطاب التقويميّ من خلال ما سبق، هو المسح الدّقيق لأهم وأبرز الكتابات التي اعتُبرت من قبيل اللّسانيّات

العربيّة، وتحليلها تحليلاً منهجياً يمكّن من كشف وتبيان خصائصها النّظريّة والمنهجيّة في ضوء اللّسانيات العامّة[8]. فهدفه هو تحديد العقبات الإبستيمولوجية "التي تقطع الطريق أمام التراكم اللامحدود للمعارف وتوقف نموّها البطيء وتزجّ بها داخل زمن جديد وتفصلها عن مصدرها الإختباريّ ودوافعها الأصليّة وتطهّرها ممّا علق بها من أوهام خياليّة."[9] ومن هنا يرى (حافظ إسماعيلي علوي)[10] أنّه من الضّروري التّمييز بين الخطابات اللّسانيّة التقويميّة التي تنقسم حسبه إلى عدّة اتّجاهات كبرى، حسب طبيعة الاشتغال والأسس المنطلق منها وكذا المنهج المعتمد والغايات التي تروم تحقيقها والوصول إليها من خلال البحث، ولقد أفرز بحثه عن تقسيم الكتابات النّقديّة إلى ثلاثة اتّجاهات أهمّها:

أ-خطاب تقويميّ عامّ: يتمحور موضوعه حول الكتابة اللّسانيّة العربيّة بشكل شموليّ؛ أي دون تميّيز بين نماذجها واتّجاهاتها، فمنذ تأثُّر الثّقافة العربيّة باللّسانيّات الغربيّة ظهرت عدّة اتّجاهات تُماثل تنوع الاتّجاهات في الثّقافة اللّغويّة الغربيّة، منها المنهج المقارن والتّاريخي ثمّ المنهج الوصفيّ التّصنيفيّ وصولا إلى المناهج التّفسيريّة المتمثّلة في المنهج التّحويليّ التّوليديّ باختلاف نماذجه، ويليه منهج النّحو الوظيفيّ.

ب-خطاب تقويميّ خاصّ: يركز على الاتّجاهات اللّسانيّة أو أحد اللّسانيّين أوفرع من فروع الدّراسة اللّسانيّة، وما يلاحَظ على هذا الصّنف من الكتابة النّقديّة تجاوزه في أحيان كثيرة لحدود اللّياقة العلميّة، ولعلّ السّاحة اللّسانيّة تزخر بالعديد من هذه النّماذج سواء أكان المؤلَّف نقديّاً أم تعليميّاً، فتجد المؤلِّفين في الكثير من الأحيان يميلون إلى النّقد اللّاموضوعيّ مستخدمين اللّغة النّابيّة والتّجريح، والتي تتجاوز وتبتعد عن الضّوابط العلميّة المتّفق عليها.

ب-خطاب تقويميّ مؤسَّس: يُعتبر هذا الصّنف من الكتابة مختلفا عن النّمطين السّابقين؛ فهو لا ينطلق من أسس عامّة في النّقد ولا يتوّجه بالنّقد إلى اتّجاه خاصٍ أو إلى لسانيّ بعينه، بل يروم إعمال النّظر في الخطاب اللّسانيّ العربيّ ونقده وتقويمه بالاستناد إلى أسس نقديّة واضحة المعالم، كما يُعدّ هذا النّمط من الكتابة جديدا على الثّقافة اللّسانيّة العربيّة بل وحتّى الغربيّة.

3. أزمة الخطاب اللّسانيّ العربيّ في تصور مصطفى غلفان: يستهل النّاقد تقويمه للخطاب اللّسانيّ العربيّ بتحديد مفهوم الأزمة العلميّة؛ التي تعني مجموع العوائق والعراقيل التي تَحُول وتطوّر العلوم والنّظريات، ومن هذا المنطلق نزعم أنّ (مصطفى غلفان) اعتمد هذا التوجّه، وهذا ما أورده في إحدى كتاباته التي يشير فيها صراحة إلى وجود أزمة في اللّسانيّات العربيّة، ومن هنا نتساءل: كيف كان تصوّره لمفهوم أزمة اللّسانيات العربية؟

إنّ نظرة فاحصة لما أورده (مصطفى غلفان) في أحد كتبه يتبيّن لنا بوضوح طريقة تناوله لمصطلح أزمة اللّسانيات؛ حيث نجد أنّه أطلق على الفصل الأول من كتابه (اللّسانيات العربيّة الحديثة دراسة نقديّة في المصادر والأسس النظريّة والمنهجيّة) عنوان (أزمة اللّسانيات العربيّة الحديثة) ففي حديثه عنها انطلق من عدّة تساؤلات لا تخلو من أهميّة –في نظرنا–لعلّ أهمها: "إذا كان ثمة أزمة فما طبيعتها؟ وما هي سماتها؟ وماهي مظاهرها؟ وما هو تأثيرها على الدّرس اللّسانيّ العربي الحديث؟[11]. يمكن القول بأنّ معظم هذه التّساؤلات كانت في محلّها، لأنّها حددّت الإطار المعرفيّ لأزمة اللّسانيات العربيّة الذي ارتبط بزيادة الإقبال على المعارف اللّسانيّة كمّا وكيفا، لكن هذا الاهتمام المتزايد لم يخفِ حقيقة مفادها، أنّ الخطاب اللّسانيّ العربيّ الحديث لم يعطِ بعد ما كان متوقّعا منه على غرار ما حدث في الثقافات الأخرى[12]. ومن خلال هذا القول يبدو جليّا أنّ النّاقد يعترف بقصور الخطاب اللّسانيّ العربيّ.

1.3 أسباب أزمة الخطاب اللّسانيّ العربيّ (العوائق): يمكن القول بأنّ الإشكال الحقيقيّ في الخطاب اللسانيّ العربيّ يكمن في الأسس والمنطلقات؛ أي أنّ النّاقد يشير صراحة بأنّ الانطلاقة الأولى للّسانيات عند العرب كانت خاطئة، ممّا يستدعي نتائج خاطئة بالضّرورة، وهذا ما يؤكّد حسبه أنّ السّبب الفعليّ للأزمة هو وجود عوائق تَحول دون تطوّر هذا العلم، وقد قسّمها قسمين:

أ–عوائق خارجيّة(ماديّة): تتعلّق بالمحيط الماديّ والصّعوبات الحقيقية التي تعترض سبيل البحث.

ب–عوائق داخليّة(صوريّة): ترتبط بكنه الدّرس اللّسانيّ العربيّ، من حيث هو بناءٌ نظريّ ومنهجيّ.

ومن الملاحظ أنّ النّاقد لم يهتم بالعوائق الخارجيّة التي تتمثّل في:

أ–سوسيولوجيّة البحث العلميّ في الوطن العربيّ (الجانب الاجتماعيّ)

ب–مستوى تدريس اللّسانيات في رحاب الجامعات العربيّة.

ج–غياب النّقد الموضوعيّ؛ أي لا توجد مراقبة ومتابعة لما ينجز في السّاحة العربية اللّسانية[13] لكونها لا تندرج مباشرة في موضوع البحث، غير أنّ الإشارة إليها تنمّ عن إدراكه لأهمية العامل السوسيولوجيّ في التشكّلات الخارجيّة لأنّه أساس التّفكير، إلاّ أنّ إقصاءه للعوامل الخارجيّة أدّى بالبحث إلى وجهة فلسفيّة صوريّة تكاد تبتعد في الكثير من الأحيان عن الواقع اللّغويّ العربيّ، أمّا العوائق الصّورية، فنجد أنّ اهتمام النّاقد يكاد ينصبّ عليها بنسبة كبيرة، لأنّها ترتبط بكنه الدّرس اللّسانيّ ولعلّ أبرزها:

أ–علاقة البحث اللّسانيّ بالتّراث؛ أي بالفكر اللّغوي العربيّ القديم، وهو مجال تندرج فيه معظم الكتابات اللّغويّة العربيّة المعاصرة، إنّنا مرة أخرى أمام إشكالية الأصالة والمعاصرة.

ب–غياب تصور علميّ دقيق ومضبوط للّغة العربية باعتبارها الموضوع الأساس للدّرس اللّسانيّ العربيّ[14] حيث إنّ تركيز النّاقد على العوائق الصّوريّة جعله يُقحم إشكاليّة الأصالة والمعاصرة، ويجعلها من معوّقات البحث اللّسانيّ العربيّ، لكن الذي يجدر تذكّره أنّ تكوين معظم اللّسانييّن العرب الأوائل كان تراثيّا منذ البداية، فكيف ينقُدون على شيء درجوا عليه وألفوه؟

4.الأسس النّقديّة لتقويم الخطاب اللّسانيّ العربي عند مصطفى غلفان: لقد أشار النّاقد في الفصل الثالث من كتابه المعنون بـ (الإطار المنهجيّ لتحليل الكتابة اللسانيّة العربيّة) إلى جملة من الأسس التي اعتمدها في تحليله معتقدا بأنّ" التّحليل النّقدي السليم هو الذي يستطيع أن يخلق بينه وبين العمل المستهدف حواراً علميا مثمراً تكون له نتائج نظرية ومنهجية و تطبيقية في مجال معرفيّ معيّن"[15] ويقول أيضا: "لن يصبح التّحليل النقديّ اللّسانيّ فعالا في الثقافة اللّسانيّة العربيّة، إلّا بوضع جملة من

الأسس الواضحة المعالم منهجيا ونظريا[16]" وفي هذه الحالة يصرّح الناقد بأنّ تحليله يقوم على نوعين من القواعد؛ قواعد معياريّة وقواعد مؤسِّسة، ولاشك أن هذا التقسيم أخذه من فيلسوف اللّغة سورل (Searle) فالواضح عند مصطفى غلفان، أنّه ركّز على القواعد المؤسّسة التي اعتمدها في التّحليل وتتمثّل في ما يلي:

1.4-الإيمان بتعدّد المذاهب والتيّارات اللّسانيّة: تُعدُّ هذه القاعدة أمرا هامّا في كلّ عمل نقديّ يجب أن يأخذها كلّ ناقد بعين الاعتبار إذا أراد أن يكون نقده موضوعيّا، والمتعارف عليه أنّ الدّرس اللّغويّ العربيّ الحديث عرف ظهور العديد من التيارات والمذاهب اللّسانيّة، وهذا ما أفرز خلافا نظريّا ظاهرُه سلبيّ أدّى إلى وجود "شبه قطيعة بين اللّسانيّين، فلا أحد منهم يهتمّ بما يكتبه الآخر وهذا ما يجعل أمر اللّسانيات في ثقافتنا متروكا للاجتهادات الفرديّة التي تقف عند حدود الاتّجاهات اللّسانية."[17] وبالرّغم من ذلك إلاّ أنّ الاختلاف قد يكون إيجابيّا.

2.4-نقد المصادر: يكتسي نقد المصادر أهميّة بالغة في النّقد بصفة عامّة لأنّ معرفة المصادر تؤدّي إلى معرفة التّوجه الفكريّ لكلّ ناقد أو مفكّر وقد أعطى (مصطفى غلفان) لكلمة مصدر في دراسته دلالتين:

أ- الأصول الفكريّة والمبادئ المنهجية التي ترتكز عليها نظرية لسانيّة معيّنة... كما تشمل المصادر مُجمل المبادئ الأساس التي تقترحها النّظريات اللّسانيّة الحديثة.

ب-المصادر التي يعتمدها باحث معيّن في دراسة موضوع محدّد، وتحدد هذه المصادر والأبحاث التي انطلق منها الباحث أو استند إليها للوصول إلى نتائج معيّنة.[18] ومن هنا يُعدّ تحديد المصادر وذكرِها أمرا تقتضيه المنهجيّة العلميّة، كما أنّ إغفالها يؤدّي إلى وجود خلل في البحث والدّراسة، لذلك نجد النّاقد يشدّد على وجودها فهو يعتقد بأنّ "عدم إلمام النّاقد اللّسانيّ بمصادر عمل معيّن وأصوله يجعل المتابعة النّقديّة غير موضوعيّة لأنها تحمّل الكتابة المستهدفة نقداً لم تهدف إليه أو أنّها تطلب منها أشياء تخرج عن حدود مصادرها الفكريّة العامّة[19]" وعدمُ ذكرها يشكّل عائقا نقديّا يؤرّق العديد من النقّاد، كونه يصعّب مهمّة النّاقد.

5. تجليّات التّحليل النّقديّ عند مصطفى غلفان: بعد أن استظهرنا في المبحث السّابق جملة المعايير التي وظّفها النّاقد لغرض تصنيف الكتابة اللّسانيّة العربيّة، نجده يصنّف الكتابة اللّسانيّة إلى ثلاثة أصناف متباينة، ثم قام بنقد وتقويم كل صنف على حدى، وهذه الأصناف هي:

1.5. الخطاب اللّسانيّ التّمهيديّ (التّبسيطيّة): يرى (مصطفى غلفان) أنّ الخطاب اللّسانيّ التّمهيديّ "يتشكّل ممّا تقدمه النّظريات اللّسانيّة الحديثة من مبادئ جديدة في دراسة اللّغة البشريّة بصفة عامّة ومناهج تحليل اللّغات الخاصّة، وتروم الكتابة التّمهيديّة تقديم اللّسانيّات ومفاهيمها النّظريّة والمنهجيّة بشكل مبسّط قصد تيسير المعرفة اللّسانيّة للقارئ العربيّ وتقريبها منه"[20] فلقد حتّمت وضعيّة اللّسانيّات في الثّقافة العربيّة المعاصرة على اللّسانيّين أن يركّزوا جانبا من اهتمامهم ونشاطهم لتقديم هذه النّظريّة وعرضها؛ أي تقديم الجانب النّظريّ الذي ارتبطت به اللّسانيّات العربيّة للقارئ العربيّ ليستطيع تمثّلها وفهمها.

2.5 نقائص الخطاب اللّساني التمهيدي: يعتقد النّاقد أنّ هذا النوع من الكتابة لم يُعِرْ القارئ العربيّ قدراً كبيرا، سواء أكان هذا القارئ مبتدئا أم على قدر كبير من الثّقافة؛ فالكتابة التمهيديّة " لا تفرّق بين هذا أو ذاك. إنّ قراء هذا النّوع من المؤلّفات لهم في عرف الكتابة التمهيديّة مستوى معرفيّ واحد[21]". ومهما يكن من أمر فإنّ دوافع الكتابة التّمهيديّة تكاد تجتمع حول مبدأ تبسيط المعرفة للمتلقّين ولعلّها –في رأي النّاقد– قد نجحت في مهمّتها التّاريخيّة محقّقة بذلك هدفها الأساس في نشر الفكر اللّسانيّ الحديث داخل الأوساط الثّقافيّة العربيّة، غير أنّ هذا النّجاح بدأ يتراجع لأسباب عديدة منها:

أ–الارتباك في تحديد مجال البحث مفهوميّا ومنهجيّا.

ب–غياب تقنيّات التّحليل اللّسانيّ.

ت–عدم مواكبة تطوّر النّظريّات اللّسانيّة.

ث–الإفراط في التّبسيط.

ج–الجنوح للتّعتيم الشديد.

ح–إهمال المصادر الأساس.

3.5الخطاب اللّساني التّراثي: يشير النّاقد في بداية هذا المبحث إلى الوقوف عند إشكاليّة هامّة في التّأريخ الفكريّ العربيّ حيث يقول: "يقتضي الحديث عن لسانيّات التراث الوقوف أوّلا، عند الإشكالية العامة التي يندرج فيها هذا الصنف من الكتابة اللّسانيّة العربيّة الحديثة، أي ما اصطلح على تسميّته في الفكر العربيّ الحديث بإشكاليّة الأصالة والمعاصرة"[22]. ولعلّ هذه الإشكاليّة يدور محورها حول التراث، وقد أفرزت هذه الإشكاليّة تيّارَين بارزَين، عبّر عنهما أحد المفكّرين قائلا: "هل نأخذ بالغرب أم بأسلافنا حكما على مشكلاتنا[23]". فالتيّار الأوّل يرى بأنّه "يجب إدماج التراث في الحياة العربيّة فكريّا وسياسيّا واجتماعيّا، انطلاقا من أنّ بناء مستقبل عربيّ أصيل له خصوصيّته الذّاتيّة والموضوعيّة"[24] أمّا التيّار الثاني(المعارضون) "فيدعون إلى التّحرّر من تبعيّة الماضي وروحه وما ورثناه من قيم وأفكار، حتى نتمكّن من الابداع خارج التراث"[25] وممّا سبق يُلاحظ انتقال هذه الإشكاليّة إلى الفكر اللّغويّ العربيّ، حيث نجد أنّ النّاقد أطلق على النّوع الثاني من الكتابة اللّسانيّة اسم (لسانيّات التراث)، ويرى بأنّ السِّمة المميزة لهذا النوع من الكتابة تكمن في "سعيها إلى التّوفيق بين مضامين التّراث اللّغويّ العربيّ وما تقدّمه اللّسانيات من نظريّات. ويستعمل لسانيوّ التّراث شتّى الوسائل المعرفيّة لتحقيق غاية التوفيق في إطار ما يُعرف بالقراءة وإعادة القراءة[26]".

4.5 تقييم لسانيات التراث: انتقد (مصطفى غلفان) لسانيات التّراث بشدّة هذا ما يظهر جلياً في العناصر السّابقة الذّكر، كما اعتبر النّاقد هذا النّوع خارج دائرة البحث اللّسانيّ، لا يحتاجه الدّرس اللّسانيّ العربيّ حيث "إنّ الكتابة اللّسانية التي يحتاجها الدّرس اللّسانيّ العربيّ، هي أساسا لسانيّات العربيّة التي تتناول بالدّرس والتّحليل اللّغة العربية في مختلف مستوياتها."[27] وعلاوة على هذا، فقد رأى النّاقد أنّ لسانيّات التّراث تُعدّ إيجابيّة من ناحيتين:

أ. تعريفها بالتّراث اللّغويّ القديم.

ب–تأكيدها على أهمية النّظريّات اللّسانية الحديثة وضرورة الأخذ بها[28].

5.5 تطبيق النّظريات اللّسانيّة الحديثة على اللّغة العربيّة(لسانيات العربيّ):

يُقصَد بها البحوث التي تطبق ة المناهج اللّسانيّة الحديثة على اللّغة العربية، واعتُبر هذا النوع من الكتابة مرحلة النّضج عند اللّسانيّين العرب وينطلق (مصطفى غلفان) في هذا المبحث من حقيقة مفادها أنّ لسانيات العربيّة "هي الكتابة اللّسانيّة التي تعتمد اللّغة العربيّة موضوعا تشتغل به وتتمحور حولها كلّ اهتماماتها... والحقيقة أنّ الكتابات اللّسانيّة العربيّة التي تسير على هذا النّهج قليلة، تكاد اليوم تعدّ على أصابع اليد الواحدة."[29] وبناء على القول السّابق فإنّ النّاقد يعتقد أنّ لسانيّاتِ العربيّةِ هي النّوع الذي يجب التّركيز عليه وتنميّته؛ لأنّه يتعامل مباشرة مع اللّغة العربيّة ولا يتعالى عن موضوعه، وهو يرى أنّ هذا النّوع من الكتابة يعرف "تطورا نوعيّا ويلتمس طريقه نحو آفاق جديدة... إنّ لسانيّات العربيّة تمكّنت من وضع اللّبنات الأولى لبحث عربيّ علميّ دقيق... معبّدةً السّبيلَ للأجيال القادمة، نحو درس لسانيّ عربيّ في مستوى الحداثة والعالميّة."[30] كما قسّم النّاقد هذا النّوع من الكتابة إلى اتّجاهات ثلاثة:

6.5 الاتّجاه البنيويّ الوصفيّ: يرتبط ظهور المنهج البنيويّ الوصفيّ بالعالِم اللّغويّ السويسريّ (فردناند دي سوسير) حيث اعتمد هذا الأخير على الوحدات الشكليّة في تقييم الكلام المنطوق من المركّب إلى البسيط، وأصبحت "ثورة في عالم الدّراسات اللّغويّة، بما فعلته في ساحة هذه الدّراسات، فحوّلت مسارها من قَصْرها على الدّراسات الفيلولوجيّة للّغات."[31] وهذا ما جعل عددا من اللّسانيين العرب "يسعى إلى تطبيق هذا النّموذج اللّسانيّ على اللّغة العربيّة، وقد مرّ هذا التّطبيق عبر مرحلتين:

أ–حاول بعض اللّغويّين العرب أولّ الأمر، التّعريف بالمبادئ والأفكار اللّسانيّة الجديدة على نحو ما نجد عند (إبراهيم أنيس) و(محمود السّعران) و(تمام حسان) وغيرهم.

ب–قام لسانيون آخرون بالدّفاع عن الفكر اللّسانيّ الحديث(علم اللغة) مبيّنين إيجابياته نظريّا ومنهجيّا، مقارنين بينه وبين الفكر اللّغويّ العربيّ القديم، وأبرز من كتب في هذا الصدد (تمام حسان)[32] ومن هنا نتساءل: كيف تعامل الخطاب اللّسانيّ العربيّ ذو المنحى البنيويّ الوصفيّ مع اللّسانيات العامّة؟

لقد سجّل النّاقد عدّة ملاحظات حول كتابة الوصفيّين، لعلّ أهمّها:

أ-عدم تحديد المصادر والأسس النّظريّة والمنهجيّة في التّطبيق.

ب-الانتقائيّة في التّعامل مع مبادئ اللّسانيّات.

ت-من البساطة إلى السّطحيّة.

ث-حضور التحليل اللّغويّ القديم.

7.5-الاتّجاه التّوليديّ التّحويليّ: في بداية الخمسينيّات، وتحديدا العام 1957م ظهر الاتّجاه التّوليديّ على يد العالم الأمريكيّ (نعوم تشومسكي) واعتبر مثل هذا الاتّجاه حينها حركة لغويّة جذريّة جاءت لتصحيح مسار اللّسانيّات العامّة ككلّ، وثورة معلنة على الافكار التي جاء بها(سوسير) ونظرا لما يحمله من تصوّرات جديدة وأفكار مُغرية تمّ تبنّيه على نطاق واسع، وفي جميع أقطار العالم، لقد كانت النّظرية التوليديّة التّحويليّة إطاراً منهجيا للعديد من اللّسانيين العرب، الذين حاولوا تطبيق مفاهيمها على اللّغة العربيّة.

ويرى (مصطفى غلفان) أنّ الكتابة اللّسانيّة التّوليدية العربيّة، لم تبدأ في الظهور "إلاّ في بداية السبعينيّات من القرن العشرين وتكاد لا تخرج عن دائرة بعض الأسماء التي أسهمت بشكل واضح وفعّال في التّعريف بالنّحو التّوليديّ وبتطبيقه على اللّغة العربية."[33] غير أنّ هذه الأسماء (الفاسي الفهري، ميشال زكرياء، خليل عمايرة) وعلى قلّتها استطاع النّاقد أن يميّزها حسب قيمتها العلميّة، ويمكن أن يرجع سبب تأخّر ظهورها إلى غياب حركة التّرجمة، وعدم مواكبة اللّسانيّين آنذاك لما طرأ من مستجدّات لسانيّة.

8.5-مزايا وعيوب الخطاب اللّساني التوليديّ التحويليّ العربيّ:

أ-تمكّنه من صياغة قواعد للظواهر اللّغوية المدروسة تتسمّ بالبساطة والوضوح على غرار ما هو معروف في النّحو التوليديّ.

ب-تقديم قواعد عامّة تفسر المعطيات تفسيرا شموليا، وهذا ما نجده في كتابات (عبد القادر الفاسي الفهري) و(داوود عبده) مثلا.

ولقد ذكر النّاقد أهميّة تعدّد النّماذج اللّسانيّة المطَبّقة على اللّغة العربيّة وعدّهُ شيئا إيجابيّا في حدّ ذاته ومن بين هذه الإيجابيّات ما يلي:

أ-إثراء البحث اللّسانيّ العربيّ؛

ب-تقريب الدّرس اللّسانيّ العربيّ من واقع البحث اللّسانيّ العالميّ؛

ج-تعميق المعرفة العلميّة باللّغة العربيّة.

د-إثارة إشكالات جديدة واقتراح الحلول المنهجيّة الممكنة.

هـ-التّحليل العميق والشامل للغة العربيّة.[34] غير أنّ هذه الإيجابيّات في نظر النّاقد لا تُخفي بعض الصّعوبات التي تواجه هذا الضّرب من لسانيّات العربيّة وقد أجملها النّاقد في ما يلي:

أ-عدم تقديم بحث توليديّ متكامل للغة العربيّة، فالكتابة التوليديّة العربيّة ما تزال في بداية الطّريق.

ب-تناولها التّجزيئيّ لقضايا اللّغة العربيّة والخلط بين النّماذج اللّسانيّة.

ج-عدم التّدقيق في فرضيّاتها ومدى ملاءمتها للّغة العربيّة.

6-النتائج المتوصل إليها: إنّ اعتزاز النّاقد بانتمائه إلى الدّراسة اللّسانيّة الحديثة لا يخفي إعجابه بالدّرس التراثيّ العربيّ في العديد من المناسبات، فقد مكّنته هذه المرجعيّات من تنويع استدلالاته وشقّ طريق الممارسة النّقديّة بنجاح، وإلى جانب خلفيّاته اللّغويّة التي أشرنا إليها، توجد خلفيّات معرفيّة أخرى مختلفة، ويعتقد أحدُ الباحثين أنّ وصول (مصطفى غلفان) إلى مكانة نقديّة رفيعة، راجع إلى المصادر التي ينهل منها حيث يقول: "إنّ مصادر الكتاب تكشف عن اطّلاع واسع ودراية عميقة بمحتوى الكتابات التي تشكل مرجعا أساسا للبحوث الإبستمولوجيّة المعاصرة ونمثل لذلك بـ: بوپر Popper وألمو Ullmo وباشلار Bachelard وكانغليم وفيتغنشتاين Wittegenstein وغيرهم، كما يقيّم المؤلف المصادر اللّسانية بالرجوع إلى ينابيعها وأصولها بإحالته إلى تشومسكي Chomsky، وروس Ross ، وفيلمور Fillmore وكروس Griss، وماكفلي McCawley، وباخ E.Bach، ولايكوف Lakof في إطار النحو التوليديّ والدلالة التوليديّة. أما في إطار اللّسانيّات الوظيفيّة، فنجد إحالات على:

فريج Frège وراسل Russel وكارناب Carnap وتارسكي Tarski وموريس Morris وأوستين Austine ..."[35] من خلال هذا الاطّلاع الواسع استطاع النّاقد أن يقدّم تقويما دقيقا للكتابة اللّسانيّة العربيّة.

1-قدّم نقدا لم يكن قائما على رؤية منهجيّة أو نظريّة أو شاملة للفكر اللّغويّ العربيّ القديم، وإنّما يتعلّق الأمر بملاحظات متفرّقة تحاكي في حالات عديدة ما ورد في الفكر الغربيّ من نقد للنّحو الغربيّ التّقليديّ.

2-تعدّ مرحلة انتقال الفكر اللّسانيّ الغربيّ إلى الثّقافة العربيّة مواجهة حقيقيّة بين التّراث اللّغويّ العربيّ وبين الوافد الجديد، حيث لاقت اللّسانيّات ردودا عنيفة من قبل المحافظين(الأصوليّين)، فأُسيء الانتفاع بها في الكثير من الأحيان.

3-تُعدّ الانطلاقة الفعليّة لتلقّي اللّسانيات في الفكر العربيّ المعاصر، بعودة البعثات الطلابيّة من الخارج متأثرين بما تلقّوه من أساتذتهم، أمثال: تمام حسان، عبد الرحمن أيوب، محمود السعران... فبدؤوا التأليف في هذا العلم واندمجوا مع أفكاره ونشروه عن طريق كتاباتهم المتعدّدة.

4-تعدّ أزمة اللّسانيات العربيّة أزمة أسس ومناهج لا أزمة تطوّر بالمفهوم الإبستمولوجيّ؛ لأنّ اللّسانيّات لم تكن سليلة جهد عربيّ خالص، بل هو علم مستورد من الغرب.

5-كتاب (مصطفى غلفان) «اللسانيات العربيّة الحديثة دراسة نقديّة في المصادر والأسس النّظريّة والمنهجيّة» يُعدّ أجرأ محاولة في نقد الواقع اللّسانيّ العربيّ، ليس في نظر صاحبها فحسب؛ وإنّما في نظر العديد من الدّارسين فعمله لم يكن وليد الصُّدفة والارتجاليّة؛ وإنّما كان نَتاج جهد كبير وزمن طويل ورؤية منهجيّة دقيقة.

6-تعرّض (مصطفى غلفان) لتقويم الكتابة اللّسانيّة العربيّة وتقييمها بناءً على المنهج الوصفيّ التحليليّ؛ حيث كانت لغته النّقدية دقيقة في الكثير من الأحيان، لكنّه مع ذلك يستعمل مصطلحات يخرج بها عن سياق الموضوعيّة إلى الذاتيّة، من نحو وصفه الخطابَ اللّسانيّ العربيّ بالهزيل.

7-اعتماد (مصطفى غلفان) مجموعة من الأسس النّقدية لمشروعه والمتمثّلة في: المنهج، الموضوع والغاية. وقد أسفرت هذه الأسس التي أقام عليها النّاقد تصنيفه عن نتائج موضوعيّة مكّنته من تصنيف الجهود اللّسانية العربية إلى: (لسانيّات تمهيديّة لسانيّات التراث، لسانيّاتُ العربيّةِ) وعلى الرّغم من جودة هذه الأسس، إلاّ أنّنا ألفينا النّاقد أهمل عديد الكتابات اللّسانيّة مثل الكتابات البيبلوغرافيّة.

8-تأثرُ (مصطفى غلفان) بشكل واضح بالمبادئ العامّة للّسانيات، حيث يُعدّ أبرز مبدإ دراسة بنية الألسن كموضوع لها؛ فالنّاقد جعل هذا المبدأ منطلقا أساسا في تقويم الكتابة اللّسانيّة العربيّة كما تأثّر النّاقد بفلسفة العلوم التي تهتم بنقد العلم وبيان مقوّماته.

9-الإقرار بوجود عقبات تعيق تطوّر الكتابة اللّسانيّة العربيّة، يقتضي وجود عوائق داخليّة وخارجيّة ولتجاوزها ينبغي الوقوف عليها بدقّة وعدم إهمال أيّ جزء منها، وما نستنتجه بهذا الصّدد من خلال كتابات (مصطفى غلفان) إهماله للعوائق الخارجيّة بدعوى أنّها لا تندرج في موضوع بحثه بدقّة.

7. خاتمة: تقتضي القيمة العقليّة في حكمها على أي مجهود علميّ؛ إبراز إيجابيّاته ومحاسنه وفي مقابل ذلك تبيان سلبيّاته وسقطاته، ولعلّ هذه السّمة موجودة في كل جهد بشريّ، ومن هذا المنطلق يُعدّ الجهد العلميّ الذي قدّمه (مصطفى غلفان) جليلا وذا مكانة في الأوساط العلميّة؛ فقد سطّر هذا النّاقد أهدافا عديدة في بداية كتابه استطاع، في نظرنا، تحقيق معظمها، وبهذا استطاع (مصطفى غلفان) تتبع العديد من المؤلّفات اللّسانيّة العربيّة بالدّرس والتّحليل والنقد، وقد أثبت تميّزه عن العديد من الدّراسات الأخرى المتقدّمة في هذا المجال التي كانت تَعوِزها الشّموليةُ ودقّة المنهج.

8. قائمة المراجع:

1-حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ط1، بيروت لبنان:2009م، دار الكتاب الجديد المتحدة.

2-حافظ إسماعيلي علوي+وليد العناتي، اسئلة اللغة أسئلة اللّسانيات، ط1، الجزائر العاصمة، الجزائر:2009م الدار العربية للعلوم ناشرون+منشورات الاختلاف+ دار الأمان.

3-حافظ إسماعيلي علوي+امحمد الملاخ، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ط1 بيروت لبنان+ الجزائر،2009م، منشورات الاختلاف+الدار العربية للعلوم ناشرون.

4-حسام البهنساوي، أهمية الربط بين التفكير اللّغوي عند العرب ونظريات البحث اللّغوي الحديث، دط. القاهرة: 1994، مكتبة الثقافة الدينية.

5-طيب تزيني "إشكالية الأصالة والمعاصرة في الوطن العربي" أعمال ندوة: التراث وتحديات العصر في الوطن العربي دط. بيروت: 1985م، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية.

6-مصطفى غلفان، اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة حفريات النشأة والتكوين ط1، الدار البيضاء:2006م، شركة النشر والتوزيع المدارس.

7-مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية دط، جامعة الحسن الثاني عين الشق: 1998م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم4.

8-مصطفى غلفان، اللّسانيات العربية أسئلة المنهج ط1، عمان الأردن:2013م دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع.

9-مشال فوكو، حفريات المعرفة تر سالم يافوت، ط2، 1987م.

10-محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دط، بيروت: دت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

11-فاطمة البكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، ط1، مصر:2004م، إيتراك للنشر والتوزيع.

12-يوسف منصر "الخطاب اللّساني المغاربي اتجاهاته ومضامينه" نقلا عن: http://www.aljabriabed.net/n96_08mansar.htm الجزائر:13-07-2017م.

9. هوامش:

[1]. مصطفى غلفان، اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة حفريات النشأة والتكوين، ط1، الدار البيضاء:2006م، شركة النشر والتوزيع المدارس، ص144.

[2]. فاطمة البكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، ط1، مصر:2004م، إيتراك للنشر والتوزيع، ص16.

[3]. حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ط1، بيروت لبنان:2009م دار الكتاب الجديد المتحدة، ص50.

[4]. حافظ اسماعيلي علوي+ وليد العناتي، اسئلة اللغة أسئلة اللّسانيات، ط1، الجزائر العاصمة الجزائر:2009م الدار العربية للعلوم ناشرون+ منشورات الاختلاف+ دار الأمان ص21.

[5]. محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دط، بيروت: دت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ص21-22.

[6]. يوسف منصر "الخطاب اللّساني المغاربي اتجاهاته ومضامينه" نقلا عن: http://www.aljabriabed.net/n96_08mansar.htm الجزائر:13-07-2017م.

[7]. مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية دط، جامعة الحسن الثاني عين الشق: 1998م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سلسلة رسائل وأطروحات رقم4، ص5.

[8]. مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، ص9.

[9]. مشال فوكو، حفريات المعرفة تر سالم يافوت، ط2، 1987م، ص6.

[10]. حافظ إسماعيلي علوي+امحمد الملاخ، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ط1، بيروت لبنان+ الجزائر،2009م، منشورات الاختلاف+الدار العربية للعلوم ناشرون، ص193.

[11]. مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، ص17.

[12]. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[13]. المرجع نفسه، ص21.

[14]. مصطفى غلفان، اللّسانيات العربية الحديثة، ص21.

[15]. المرجع نفسه، ص56.

[16]. المرجع نفسه، ص57.

[17]. حافظ إسماعلي علوي+ وليد العناتي، أسئلة اللغة أسئلة اللّسانيات، ص57.

[18]. المرجع نفسه، ص64-65.

[19]. المرجع نفسه، ص66.

[20]. مصطفى غلفان، اللّسانيات العربية أسئلة المنهج ط1، عمان الأردن:2013م، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ص62.

[21]. مصطفى غلفان، اللّسانيات العربية الحديثة، ص100.

[22]. المرجع نفسه، ص131.

[23]. طيب تزيني "إشكالية الأصالة والمعاصرة في الوطن العربي" أعمال ندوة: التراث وتحديات العصر في الوطن العربي دط. بيروت: 1985م، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية. ص90.

[24]. مصطفى غلفان، اللّسانيات العربية الحديثة، ص133.

[25]. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[26]. المرجع نفسه، ص135.

[27]. المرجع نفسه، ص165.

[28]. المرجع نفسه، ص166.

[29]. المرجع نفسه، ص171.

[30]. المرجع نفسه، ص173.

[31]. حسام البهنساوي، أهمية الربط بين التفكير اللّغوي عند العرب ونظريات البحث اللّغوي الحديث، دط. القاهرة: 1994، مكتبة الثقافة الدينية، ص10.

[32]. مصطفى غلفان، اللّسانيات العربية الحديثة، ص175.

[33]. المرجع نفسه ، ص201.

[34]. المرجع نفسه، ص231.

[35]. حافظ إسماعيلي علوي+امحمد الملاخ، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص297.